

مختصر ابن كثير

177 - ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبیین وآتى المال على حبه ذوی القربى والیتامى والمساكين وابن السبیل والسائلین وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرین فی البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذین صدقوا وأولئك هم المتقون .

اشتملت هذه الآیة الکریمة على جمل عظیمة وقواعد عميقة وعقيدة مستقیمة فإن الله تعالى لما أمر المؤمنین أولا بالتوجه إلى بیت المقدس ثم حولهم إلى الکعبة شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الکتاب وبعض المسلمین فانزل الله تعالى بیان حکمته فی ذلك وهو أن المراد إنما هو طاعة الله وامتثال أوامره والتوجه حیثما وجهه واتباع ما شرع فهذا هو البر والتقوى والإیمان الكامل وليس فی لزوم التوجه إلى جهة المشرق أو المغرب بر ولا طاعة إن لم یکن عن أمر الله وشرعه ولهذا قال : { ولكن البر من آمن بالله والیوم الآخر } كما قال فی الأضاحی والهدایا : { لن ینال الله لحومها ولا دماؤها ولكن یناله التقوى منکم } وقال ابن عباس فی هذه الآیة : لیس البر أن تصلوا ولا تعلموا فامر الله بالفرائض والعمل بها وقال أبو العالیة : كانت اليهود تقبل قبل المغرب وكانت النصارى تقبل قبل المشرق فقال الله تعالى { لیس البر أن تولو وجوهکم قبل المشرق والمغرب } یقول : هذا کلام الإیمان وحقیقته العمل وقال مجاهد : ولكن البر ما ثبت فی القلوب من طاعة الله { والکتاب } وهو اسم جنس یشمل الکتاب المنزلة من السماء على الأنبیاء حتى ختمت بأشرفها وهو القرآن المهیمن على ما قبله من الکتاب الذی انتهى إلیه کل خیر واشتمل على کل سعادة فی الدنیا والآخرة ونسخ به کل ما سواه من الکتاب قبله وآمن بأنبیاء الله کلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه علیه وعليهم أجمعین وقوله تعالى : { وآتى المال على حبه } أي أخرجه وهو محب له راغب فیه كما ثبت فی الصحیحین من حدیث أبي هريرة مرفوعا : " أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحیح شحیح تأمل الغنى وتخشى الفقر " وقال رسول الله صلى الله علیه وسلم : " { وآتى المال على حبه } أن تعطیه وأنت صحیح شحیح تأمل العیش وتخشى الفقر " (رواه الحاکم عن ابن مسعود مرفوعا وقال : صحیح على شرط الشیخین) .

وقال تعالى : { ویطعمون الطعام على حبه مسکینا یتیمًا وأسیرا ... إنما نطعمکم لوجه الله لا نرید منکم جزاء ولا شکورا } وقال تعالى : { لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون } وقوله : { ویؤثرون على أنفسهم ولو کان بهم خصاصة } نمط آخر أرفع من هذا وهو أنهم آثروا بما هم مضطرون إلیه وهؤلاء أعطوا وأطعموا ما هم محبون له .

وقوله تعالى : { ذوي القربى } وهم قرابات الرجل وهم أولى من أعطى من الصدقة كما ثبت في الحديث : والصدقة على المساكين صدقة وعلى ذوي الرحم ثنتان : صدقة وصلة فهم أولى الناس بك وببرك وإعطائك " وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم في غير موضع من كتابه العزيز { واليتامى } هم الذين لا كاسب لهم وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يتم بعد حلم " { والمساكين } وهم الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم وكسوتهم سكناهم فيعطون ما تسد به حاجتهم وخلتهم وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يظن له فيتصدق عليه " { وابن السبيل } وهو المسافر المجتاز الذي قد فرغت نفقته ما يوصله إلى بلده وكذا الذي يريد سفرا في طاعة فيعطي ما يكفيه في ذهابه وغيابه ويدخل في ذلك الصيف كما قال ابن عباس { ابن السبيل } : هو الصيف الذي ينزل { والسائلين } وهم الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " للسائل حق وإن جاء على فرس " (رواه أحمد وأبو داود) { وفي الرقاب } وهم المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه في كتابتهم عن فاطمة بنت قيس قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " في المال حق سوى الزكاة " ثم قرأ : { ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب - إلى قوله - وفي الرقاب } (رواه ابن ماجه والترمذي) .

وقوله تعالى : { أقام الصلاة } أي وأتم أفعال الصلاة في أوقاتها بركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي وقوله : { وآتى الزكاة } كقوله : { وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة } والمراد زكاة المال كما قاله سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان ويكون المذكور من إعطاء هذه الجهات والأصناف المذكورين إنما هو التطوع والبر والصلة ولهذا تقدم في الحديث عن فاطمة بنت قيس أن في المال حقا سوى الزكاة والله أعلم .

وقوله تعالى : { والموفون بعهدهم إذا عاهدوا } كقوله : { الذين يفون بعهد الله } ولا ينقضون الميثاق { وعكس هذه الصفة النفاق كما صح في الحديث : " آية حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان " (رواه الشيخان) وفي الحديث الآخر : " وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر " وقوله تعالى : { والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس } أي في حال الفقر وهو البأساء وفي حال المرض والأسقام وهو الضراء { وحين البأس } أي في حال القتال والتقاء الأعداء قاله ابن مسعود وابن عباس . وإنما نصب { الصابرين } على المدح والحث على الصبر في هذه الأحوال لشدة وصعوبته والله أعلم . وقوله : { أولئك الذين صدقوا } أي هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال فهؤلاء هم الذين صدقوا { وأولئك هم المتقون } لأنهم اتقوا

